الفصل السادس

الهجاء الاجتماعى

« من طلب عيباً وجده »

سوء الحالة الاقتصادية — قلة الدين — ضعف الخليفة — هجاء الدهر — سقوط المرأة — ذم البلدان — هجاء الممالك والحكومات

رأينا أن العرب نشأوا فى الجاهلية على أخلاق اجتماعية حافظوا عليها وتمسكوا بها ، وكانت لهم مثل عليا مدحوا من أخذ بها وذموا من حاد عنها . وقد عرفنا أن الشجاعة والكرم وحماية الجار والأخذ بالثأر . والذود عن الحمى والحفاظ على العرض كانت صفات متوارثة مقدسة . وعرفنا كيف سعى الشعراء فى هجائهم إلى التنقص من إحدى هذه الصفات فى المهجو .

ولكنهم حين انتقلوا إلى الشام لم يضيعوا هذه المزايا لأنهم نُقلوا من أهلهم إلى أهل يعرفونهم . وكانوا يجدون عندهم القربى من قبل كأنهم ذوو رحم واحد . وتعلق خلفاؤهم على كثرتهم بإدارة الحكم وتسيير الفتوح فتمسكوا بالعروبة والإسلام كما استطاعوا أن يتمسكوا . وأغضوا عن أشياء تقتضيها سياستهم آنذاك ، لذلك كانت الحياة الاجتماعية على ترفها الجديد النسبى لا تستلزم الجزع والفزع ، لأنهم حملوا معهم هذه العادات القديمة وحنوا دائماً إلى الجزيرة وعيشها وأخلاقها ، فلم تظهر عادات تناقض ما ألفوه ، ولم يكن لشعرائهم أن يتناولوا الحياة الاجتماعية إلا بشىء من النقد واللوم قالوه فى بعض الحكام ، حين مالوا نحو الترف فى العيش ، وتقليد الروم والفرس فى رسوم الخلافة ومراسيم الولاية ، فأخذوا عليهم الرياء والنفاق والإنفاق والإغداق كما رأينا ، لكن ذلك كان فى أشخاص يعدّون ويُعَدّدون .